البيت الصامت وإفرازاته الإنحرافية الأنثوية..العلاقات العاطفية لدى الفتاة المراهقة نموذجا- دراسة ميدانية -

د. نـورة قنيفة- جامعة أم البواقي- الجزائر

الملخص:

تعكس ظاهرة العلاقات العاطفية لدى المراهقات باعتبارها شكلا من أشكال السلوك الإنحرافي عن القيم و قواعد الضبط الأسرية والاجتماعية خللا في الوظائف الأسرية لاسيما في علاقتها المباشرة بأهم وظيفة أسرية هي الاتصال الأسري من جهة، وبخصوصية مرحلة المراهقة وإفرازاتها المزاجية وبالتالي السلوكية التي قد تصل حد الانحراف العلائقي (الجنسي بالخصوص) من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا نؤكد على قوة الدور التواصلي بين المراهقة وأفراد الأسرة، خصوصا وأن الكثير من الطابوهات التي تمّ كسرها " افتراضيا" جعلتنا ننظر إليها على أنها منتوج أفرزه البيت الصامت، البيت الذي يغيب فيه الاتصال الأسري أو بالأحرى يُغيّب نتيجة عمل الأم وتنازل أو استبعاد أو عدم التزام الأب بواجباته..

سنحاول من خلال هذه الورقة العلمية تقديم الظاهرة ميدانيا انطلاقا من عينة قصدية تعيش الظاهرة وتتفاعل معها مع محاولة رصد الخلل الوظيفي الأسري في بعده الاتصالي وإفرازاته النفس-اجتماعية.

Abstract :

Romantic relations hips among adolescents, as a form of deviant behavior that violates familial and social values and rules, is a phenomenon that reflects a defect in the family's functions, especially in direct concern with two facts: first, communication as the most important function of family, and second, the specificity of adolescence and its temperamental, and thus behavioral, effects that may reach the degree of relational deviation (sexual in particular). In light of all this, we emphasize the power of communicative role between adolescent girl and family members, especially as a lot of taboos have been virtually broken leads us to consider it as a result for "the silent house", the house that missed or forced to miss familial communication as a result of the mother work, and the exclusion or lack of the father's commitment to his duties.

We will try through this paper to provide a field research based on an intentional sample that live and interact with the phenomenon, and we will attempt to point the familial communication dysfunction and its psycho-social consequences..

تقديم:

إتفق العديد من المختصين والعاملين في ميدان علم النفس أمثال **Siegelman** و**Ausabel** على أن الأسرة هي الخلية الأساسية التي تتكون من خلالها شخصية الفرد لأنها تؤثّر في سلوكه إلى حد بعيد، هذا فضلا عن التفاعل الأسري الذي يعتبر من أهم العوامل الأساسية للنمو النفسي والاجتماعي و المعرفي .

والأسرة هي أول صورة للحياة، من خلالها ينمو إحساس المراهق بالأمن والتقبل، لأن المراهقة المتوافقة هي انعكاس لحياة أسرية متوازنة و مستقرة خالية نسبيا من الصراعات، يقوم فيها الوالدان بدور مميّز في بناء شخصية المراهق من كل جوانبها من خلال معاملتهم له حيث لا يجد صعوبة في التعامل مع مختلف المواقف، وتكون لديه القدرة على الدفاع عن حقوقه الخاصة، و كذلك التعبير عن مشاعره و رغباته ومعتقداته وآرائه، ويعمل دائما من أجل تحقيق أهدافه في الحياة، أما الحياة الأسرية غير المتوازنة في المعاملة فإنها تجعل الفرد عرضة للإصابة بالأمراض النفسية لأن المراهق الذي يعجز عن التصرف بصورة مؤكدة في مثل تلك المواقف سيدفع ثمن عجزه هذا من صحته النفسية والبدنية.[1]

فالفرد – المراهق- هو نتاج و محصلة تفاعلاته الاجتماعية مع مؤسسات عديدة تتولاه وتتعهد بالتربية منذ مرحلة الطفولة الأولى، و أولى تلك المؤسسات هي الأسرة، و إن دورها في عملية التنشئة الاجتماعية يفوق دور كل مؤسسات التنشئة الأخرى في المجتمع حيث تُعد الأسرة بلا منازع الجماعة الأولية التي تكسب الأبناء خصائصهم الاجتماعية، وتؤثّر في تكوين سمات شخصياتهم و دوافعهم، وحيث أن الطفل أو المراهق مرآة عاكسة لما هو موجود داخل الأسرة من تفاعلات وتبادلات وأنظمة اجتماعية ونفسية وعادات، فمن خلال أساليب المعاملة الوالدية تنضج و تتبلور شخصية الطفل.[2]

هذا و يتطلب بناء مجتمع متماسك ومنسجم في بناءاته أسرة منسجمة ومتناسقة بين أعضائها المكونين لها بدءا بالوالدين فيما بينهما إلى علاقتهما مع أبنائهما، هذا التماسك والتفاهم بين أعضاء الأسرة عماده الوالدين الذين عليهما تقع مسؤوليات كثيرة و كبيرة، أولها تنشئة الأبناء تنشئة صحيحة منذ السنوات الأولى من أعمارهم ولا تتوقف هذه المسؤولية أو

تنتهي بانتهاء مرحلة الطفولة، بل تزداد و تصبح عبئا أكبر ببلوغ الأبناء مرحلة المراهقة هذه المرحلة التي يعرف خلالها المراهق تطورات كثيرة في نموه الجسمي وشعوره و أفكاره وميولاته و لوكاته، وكثيرا ما ينحرف الابن في هذه المرحلة بسبب عدم إدراك الآباء لما يمر به ابنهم المراهق وعدم تفهمهم لأحاسيسه الجديدة التي قد تزعجه هو نفسه..(3)

في نفس السياق، وأمام إفرازات التغيير الاجتماعي الذي تعرفه الأسرة الجزائرية وتتعايش معه، تُطرح إشكالية صدمة التغيير والصراع النفسي الاجتماعي الذي تعرفه فئة المراهقين، والمراهقات بالخصوص، واقعيا بحدّة لاسيما وأن الأدوار الأساسية التي كان من المفترض القيام بها من قبل الأسرة قد تمّ التخلي عنها تدريجيا بسبب عمل المرأة، ممّا انعكس بشكل سلبي على المراهقة التي تظل دوما بحاجة إلى أمن أسري وحماية نفسية .

إن غياب أو تغييب الوظائف الأسرية الأساسية سينعكس حتما على تفاعلات المراهقة لاسيّما و أن هذا الوضع سيجعل من الفضاء الأسري فضاءا صامتا لفترة يتم تعويضها (أي التفاعلات) بآخر خارج الفضاء الأسري، أو إفتراضي يُطرح في الغالب كبديل خصوصا وأنّه الأكثر إغراءا وتأثيرا في ظل الواجهات الافتراضية التي تحمل الكثير من الجماليات والإغراءات بدءا بكسر الطابوهات مع حرية أكبر للتعبير، و إبداء الرأي وإقامة علاقات افتراضية تواصلية، و عدم الامتثال لقوانين وضوابط اجتماعية وأعراف تقليدية، ووصولا إلى إقامة علاقات عاطفية حقيقية ..

هذا الوضع الأسري جعلنا نطرح باستمرار إشكالا أهم وهو ضرورة وإيجابية الاتصال الأسري باعتباره أبرز الوظائف الأسرية المساهمة في تحقيق قدر من التوافق والأمن النفسي والتكيّف الاجتماعي لفئة المراهقات باعتبارها فئة خاصة أسّست لنفسها عالما منفردا تتفاعل من خلاله باستمرار، وتُحقق كل إشباعاتها التي قد تصل حد كسر الطابوهات خصوصا طابو الجنس ...

إن مجرد ملاحظة بسيطة لمختلف الإسقاطات المرتبطة بالتفاعلات الواقعية والافتراضية لهذه الفئة تعكس خطورة الخلل الاتصالي الأسري باعتباره أبرز العوامل

المؤسسة لذوات اجتماعية اغترابية، بل وقد تؤدي إلى إفرازات هامة جدا في ظل التغيير الاجتماعي، وفوضى الإعلام المفتوح، وعجز المواجهة، وضعف المضمون ....

ولعل تأكيدنا على جنس المتغير الأساسي للدراسة والمتمثل في المراهقة ((و ليس المراهق)) يعكس إدراكنا العلمي الاجتماعي لوضعية المراهقات في مجتمع له خصوصيته الثقافية رغم كل مظاهر التغيير الاجتماعي وصدماته النفسية وصراعاته... فحُكمنا المسبق يظل قائما بخصوص موقعيه الفتاة اجتماعيا و ثقافيا وجنسيا..

1. العلاقات العاطفية و البيت الصامت .. تقديم إجتماعي للمعاني

لعل أكثر ما ميّز البحث في ظاهرة العلاقات العاطفية ندرة تناولها من طرف الباحثين، لذا فإن أي محاولة لتحديد معناها تظل مقبولة إلى حد ما في انتظار البحث والتعمق أكثر في أبعادها ومدى الإقبال عليها لاسيما وأنها من طابوهات المجتمع المسكوت عنها والممارسة في الخفاء في ظل الصمت والرفض الاجتماعيين لممارستها أو الإقبال عليها من جهة، وطبيعة التفاعل الاجتماعي الذي لا تزال تحكمه العادات والتقاليد والأعراف والتأويل الديني إلى حد كبير من جهة أخرى ..

جاء في دراسة مصرية تناولت ظاهرة العلاقات العاطفية في الوسط الطلابي أنها" **نزعة لدى معظم الطلاب لإقامة علاقة بهدف الإشباع العاطفي و الحديث والتسلية، وتبدأ عادة برغبة الطرفين، وبمعيار الوسامة والمظهر وتنتهي عادة بالفشل، و هي علاقة يرى ممارسوها أنه ينبغي تجنّبها أو تأجيلها و القليل يرى ضرورة إشباعها. أما عن دوافع ممارسيها فهي غريزية مسيطرة يزكيها إثبات الرجولة و الأنوثة، و ضعف الوازع الديني، و يغيها التقليد والاستعراض و لفت النظر وتعويض النقص لدى كثير من الطلاب، و يدعّمها الإحتياج النفسي والروحي المشوب بالتحدي وإثبات الذات.**[4]

لعل هذا التقديم الخاص بمفهوم العلاقات العاطفية يعكس حتمية الحذر المعرفي في تناوله لأنّه مرتبط في الغالب بدوافع ذاتية وخاصة جدا تستدعي التأمل العميق لتحديدها، ليظل التعريف الأكثر شيوعا اجتماعيا للعلاقات العاطفية أنها " **تفاعل عاطفي حميمي يمارسه**

طرفين في مرحلة سنّية معينة تساهم الوسائط الافتراضية في انتشاره لاسيما عند فئة المراهقين ".

و استكمالا لما ورد، ولأننا اعتبرناها " العلاقات العاطفية " انحرافا اجتماعيا، فإننا نقدم ما أكده الكثير من الباحثين على أن لفظ انحراف لا يرتبط بشيء ما في السلوك ذاته، وإنما بعلاقة ذلك السلوك بالمعايير الاجتماعية المستخدمة في التقييم، ويجب أن نضع في الحسبان دائما درجة الخروج على المستويات المعيارية التي يشتمل عليها السلوك المنحرف. و يقول بعض المنظرين " **إن السلوك المنحرف هو ذلك السلوك الذي يشذ بطريقة واضحة وجوهرية عن المعايير.ويمكن القول أن المعيار الملائم للسلوك المنحرف هو هذا القدر من الخروج الذي يتطلب عقابا ينزله المجتمع على الفرد .**[(5)]

أما **البيت الصامت** فهو البيت الذي يكاد ينعدم فيه التواصل والتفاعل الأسري بسبب ضعف وظيفة الاتصال الأسري، والناتجة حتما عن غياب الأبوين عن الفضاء الأسري لساعات طويلة لأسباب مادية أو موضوعية ممّا أدى إلى تعويض هذه الوظيفة الهامّة جدا باتصال افتراضي أكثر سهولة، و أكثر استقطابا، وأكثر تفاعلا، وأخيرا أكثر حرية مثلما هو ملاحظ واقعيا.

فقد أفرز الإقبال الكبير على تكنولوجيات الاتصال أساليب اتصالية أكثر استحداثا وأكثر سهولة، وأصبحت من أساسيات الحياة اليومية لدى الكثيرين لاسيّما فئة المراهقين التي يستحيل الاستغناء عنها، بل وقد يصل الإقبال عليها حد الإدمان .

2. التفاعل الأسري و المراهقة .. بين الأهمية و الحتمية

أكد مصطفى حجازي في إحدى دراساته أن الأسرة هي أكثر من تجمع من الأفراد الذين يتقاسمون حيزا مكانيا ونفسيا خاصا لأنها منظومة طبيعية ذات خصائص تميّزها عن سواها، والتي طوّرت طاقما من القواعد والأدوار المحدّدة لأفرادها، وتمتلك بنية سلطة منظّمة، وطوّرت نظاما متداخلا من أشكال التواصل الظاهرة والخفية، لفظية وغير لفظية، كما وضعت طرقا للتفاوض وحل المشكلات تتيح لها إنجاز مختلف مهامها بفاعلية، وأن العلاقة ما بين أعضاء هذا العالم المصغّر الخاص عميقة ومتعددة المستويات، وتستند إلى حدّ بعيد

على تاريخ مشترك، ورؤى وافتراضات مشتركة حول ذاتها وحول العالم، وحس مشترك بالأهداف والتوجّه المستقبلي.

كما تشكّل الأسرة باعتبارها الخلية الاجتماعية النواة، مركز بناء الهُوية الذاتية، و أسس صحة أبنائها النفسية، ومتانة شخصيتهم، وحصانتهم الخلقية، كما أنّها تنمّي في نفوسهم بذور احترام الذات وتقديرها والثقة في النفس.(6)

ولعل هذا الطرح يقودنا إلى التأكيد على أهمية الأسرة في تحقيق الأمن والحماية للمراهق باعتبار أن الحاجة إلى الأمن تعتبر من أهم وأقوى الحاجات التي يسعى الإنسان إلى إشباعها، بل وإنها تصبح أكثر إلحاحًا حينما يتعرض الفرد – المراهق بالخصوص- إلى تهديدات حقيقية، فهو يحتاج إلى الرعاية في جو آمن يشعر فيه بالحماية من أية عوامل مهدّدة، ويحتاج إلى الانتماء إلى جماعته في الأسرة والمدرسة والرفاق والمجتمع، وأن يشعر بالأمان في ذاته وفي حاضره ومستقبله.

وتعتبر الرعاية الوالدية من أهم المصادر الخارجية والأساسية لإشباع هذه الحاجة الأمر الذي يمكّنه من الانطلاق إلى العالم بشخصية متّزنة بسلوكيات سليمة وخصائص نفسية تمثل جهاز مناعة ضد أيّة تهديدات تواجهه فيتعرّض للضغوط دون أن يمرض وهذا ما يسمى بالصلابة النفسية. بينما يؤدّى انعدام الشعور بالأمن النفسي للكثير من الاضطرابات الانفعالية والسلوكية، والتي لا تظهر أثارها السلبية إلا بالتقدم في العمر، فلا يجد الفرد من يركن إليه وقت ضيقه وشدّته ليكتسب منه القوة للانطلاق للحياة مرة أخرى..(7)

في نفس السياق، يتطلّب النمو السليم أن ينمو المراهق في بيت مترابط تظلّله السعادة، ويتوقّع الحماية والرعاية والحب والعطف من والديه في أيّ سن أو في أي مرحلة من النمو، ويعتز الآباء في العادة بأبنائهم ويسعون لصالحهم، و من حقهم فرض سلطاتهم على الأبناء ومن واجب الأبناء طاعتهم، و يستمر الطفل في طاعة والديه في مراحل طفولته ويفرض الآباء هذه الطاعة ويتوقعونها، فإذا ما دخل الطفل في مرحلة المراهقة حاول تأكيد ذاته بتأكيد استقلاله عن والديه، ويفاجأ الآباء بمثل هذا التغيير فيدب النزاع والاختلاف بين إرادتين وبين حقّين متعارضين، حق الآباء في السلطة وحق الأبناء في الاستقلال.

ومن مظاهر رغبة الأبناء في الاستقلال سعي المراهقين إلى تكوين الصداقات في الخارج مع من هم في سنهم و مشاركتهم في نشاطهم، ويستدعي ذلك الظهور أمامهم بالمظهر اللائق، وقد يستدعي المظهر اللائق زيادة المصروف اليومي الذي قد يكون عبئا على الوالدين و يكون هذا مدعاة للاحتكاك، ويتطلب مجاراة الأقران مشاركتهم في الجلوس على المقاهي والذهاب معهم إلى دور السينما ودعوتهم أحيانا إلى المنزل لاستضافتهم، كما يستضيف الكبار أصدقائهم، و قد يضطر إلى السهر خارج المنزل والقيام بعمل لا يعلم عنه الآباء أي شيء فيصبح المراهق من وجهة نظر الآباء متغيّرا إلى الأسوأ، فهو الولد العاق الذي أفسده أصدقاؤه..

لهذا السبب لا يصبح المنزل مكانا يلجأ إليه المراهق ما دام لا يتوقع إلا النقد واللوم والتوبيخ ويزيد النفور من المنزل في حالة ما إذا كانت هناك مشاكل خاصة بين الأبوين كالعراك المستمر، وعدم احترام الوالدين بعضهما العض أو الطلاق أو ما شابه ذلك، مما يزيد من فقد المراهق لاطمئنانه و أمنه.(8)

ولعل الوضع يصبح أكثر تأثيرا حين ينعدم التفاعل الأسري بسبب غياب أحد الأبوين باستمرار عن البيت وبالتالي ضعف أحد أبرز الأدوار الوظيفية للأسرة وهو التواصل الأسري مع المراهق والمراهقة بشكل أكثر تأثيرا لحاجتها الدائمة للتوجيه التربوي من طرف الأم..

يتحول الفضاء الأسري إلى بيت صامت فيأخذ التفاعل أشكالا أخرى لاسيما الافتراضية منها لأنّها الأسهل والأكثر توفرا نظرا لانتشارها الكبير في الأسر الجزائرية، واعتبارها من أساسيات الحياة الأسرية حاليا..

لقد تبيّن في دراسة مشابهة أن التطور التكنولوجي الحديث قد أفرز مجالات تفاعل افتراضية جديدة لم تكن معروفة من قبل، ناجمة عن الاستحداثات التكنولوجية التي حطمت الكثير من الحواجز واختصرت المسافات، وحوّلت الواقع إلى دائرة مليئة بالمستجدات اليومية، إذ أصبح هناك نمط خاص باستخدام هذه الوسائل التي دخلت حياتنا الاجتماعية وامتدت من العلاقات العامة إلى العلاقات الشخصية مما أتاح الاتصال

الواسع والمتفرّع رغم بعد المسافات، فنتج عنها ثقافة جديدة تختلف عن ثقافة المجتمع التي تستند إلى الدين والعادات والتقاليد لاسيما العلاقات العاطفية بين الجنسين التي أصبحت مرادفا للتواصل المباشر بينهما والمحظور اجتماعيا، كما يُعد وسيلة لتكثيف التفاعل بين الجنسين وتبادل الأفكار والآراء والتصورات المشتركة بينهما، و تحديد مدى عمق العلاقة وجديتها.[9]

3. الأسرة و العالم الافتراضي

من أهم الأمور التي يجب أخذها في الاعتبار عند دراسة كيفية أداء الأسرة لدورها في تربية الأبناء بصورة سليمة هو درجة تماسك الأسرة، إذ أن الأسرة القوية المتماسكة التي يكتنفها الود والتفاهم بين أفرادها غالبا ما تنتج أفرادا صالحين للمجتمع، وعلى العكس من ذلك فإن الأسرة الضعيفة هي وسط ملائم جدا لتكوين السلوك الإنحرافي لدى الأبناء. ومن الغريب في الأمر أن تصدع الأسرة يكون أكثر خطورة على الإناث منه على الذكور.[10]

في نفس السياق أكدت الباحثة سامية خضر صالح أنّه من الصعب ملاحقة كل عناصر التغيير الاجتماعي وتأثيره على الأزمات العائلية لأنّها أصبحت متعددة في هذا العصر المفتوح بلا حدود وبلا ضمان لسقف ملموس نظرا لعمليات الشد والجذب خاصة في مجال التكنولوجيا الفائقة التطور والتحديث والانبهار. حيث يؤثّر التغيير الاجتماعي في مدى أوسع من الخبرة العادية والجوانب الوظيفية للمجتمعات في العالم الحديث لأنّه في الواقع لا توجد خاصية من خصائص الحياة ليست حصينة على توقع التغيّر وتبعا لذلك فإن انتشار التكنولوجيا المادية بسرعة وتلاحق الإستراتيجيات الإجتماعية يساهم في سرعة التغيّر الاجتماعي الذي قد لا تستطيع الأسرة كبناء راسخ وتقليدي أن تتحمله إلا إذا كانت هناك مرونة فائقة يتحلى بها الأفراد ويستوعبون مشاكل العصر قبل أن يحدث الإنهيار وتنتشر مزيد من الأزمات.[11]

ولعل أبرز تلك الأزمات ما أفرزه الإقبال الكبير على مواقع التواصل الاجتماعي لاسيّما الفايسبوك الذي عرف انتشارا كبيرا في وسط المراهقات وفتح أبواب لا حدود لها لإقامة

علاقات افتراضية، وتأسيس حرية مطلقة في التفاعل مع استمرارية الاتصال في أي وقت ومع أي شخص دون أدنى التزام بقواعد الضبط والمعايير الاجتماعية .

كشفت إحدى الدراسات عن الآثار السلبية التي تعاني منها بعض الفتيات عند استخدام الفايس بوك من إجهاد جسمي وذهني بالإضافة إلى العزلة الاجتماعية، وندرة التواصل المباشر مع أفراد الأسرة، وهو مؤشر يهدّد قيمهم وثقافتهم الأصلية والحميدة، ومدى قدرة العالم الافتراضي على إحداث زعزعة في عملية تفاعل الفتاة مع أهلها وأقاربها، الأمر الذي يشكل خطورة على متانة التماسك الأسري وقوة التضامن العائلي مما يؤدي إلى مشكلات اجتماعية عديدة كالعزلة والانطواء وفقدان التواصل الاجتماعي الطبيعي، هذا التغير يعتبر من أهم التحديات التي تواجه المجتمع الآن بسبب الثورة الاتصالية والمعلوماتية في ظل العولمة والتي ساهمت في تغلغل تقنيات المعلومات والاتصالات في بنية الحياة الاجتماعية وتحكّمها بشكل كبير في شبكة العلاقات الاجتماعية للإنسان المعاصر، فقد تقلص التواصل الأسري بشكل كبير وتقلّصت الساعات التي يتم فيها لقاء أفراد الأسرة والالتزام بالواجبات الأسرية..(12)

ما يُضاف في هذا الإطار أيضا ما أدلت به دراسة سابقة أن المجتمع الافتراضي أصبح له سلطة وقيم ورموز ينتجها ويعمل الأفراد على إعادة إنتاجها بالاندماج فيها، بمعنى أن الوسائل الالكترونية اخترقت ضوابط المجتمع وقضت على الأسرة فأصبحت منتجة للاغتراب لأنها لم تعد وسيلة فقط بل أصبحت غاية للفرد الذي أصبح موضوعا لها مما يدل على أن هذه الوسائط أنتجت قيما خاصة بها وشكّلت هوية جديدة لدى الأفراد وبالتالي فهم يعيدون إنتاج قيم هذا العالم الافتراضي فهو لم يعد وسيلة فقط بل تحوّل إلى ثقافة جديدة أفرزها التغير الذي حدث على مستوى الفرد كونه مندمج فيها لأنه لا يستطيع أن يحقق رغباته في المجتمع الحقيقي المحاط بالمحرمات فهو يلجأ إلى هذا العالم الافتراضي لأنه بالنسبة له بمثابة هروب من الواقع والدليل على ذلك إصراره على إبقاء العلاقات العاطفية رغم معارضة المجتمع كونها أصبحت بالنسبة له وسيلة للتعبير عن ذاته.(13)

4. المعطى الواقعي من خلال بحث استطلاعي

في محاولة تقديم قراءة اجتماعية لظاهرة العلاقات العاطفية في وسط المراهقات، ورغم إدراكنا الشديد لصعوبة الطرح لاعتبارها طابو اجتماعي بامتياز، ولأنها ذات طابع ذاتي جدا وخاص جدا تتطلب فترة بحثية طويلة إلى حد ما للتعمق في أبعادها، فإننا اخترنا عيّنة قصدية و عددها 20 مبحوثة يتراوح سنهن بين 18 و20 سنة، مستواهن الدراسي أولى جامعي، من تخصصات مختلفة، على اعتبار أنهن في مرحلة المراهقة، وتعشن مختلف خصوصياتها العمرية. وقد تم اعتماد مقابلات حرة مع المبحوثات لأن طبيعة الظاهرة وخصوصيتها جعلتنا نؤكد على مدى أهمية هذه التقنية في الدراسات الكيفية وإمكانية التعمق البحثي من خلال اعتمادها على الأقل في المرحلة الاستطلاعية مع تأكيدنا على الصعوبة الشديدة في الحصول على ما نريد من حيثيات تساهم في فهم الظاهرة من جهة، وضرورة الاستمرارية في البحث في عالم المراهقات وما يكتنفه من مستجدات لاسيما في علاقتها بالافتراضي وإفرازاته التي أكسبت المراهقة ثقافة دخيلة وجعلتها تعيش تناقضات وصراعات نفسية، أسرية واجتماعية كثيرة... ولعل أبرز النتائج التي تمّ الوصول إليها مبدئيا:

أولا : ارتبط تأسيس العلاقة العاطفية حسب كل المبحوثات بالبيئة الأسرية وبشكل أخص بعمل الأم والفراغ العاطفي الذي قد تسبّب فيه غياب الأم لساعات طويلة عن البيت في مقابل الحاجة الدائمة للتواصل الأمومي، ليبرز البديل الأكثر شيوعا والأكثر إقبالا من طرف المراهقات عليه والمتمثل في العلاقة العاطفية مع الجنس الآخر..

نؤكد في هذا الإطار على أهمية البيئة الأسرية في تحقيق التوازن النفسي للمراهقة، والتأثير على طريقة تفكيرها ورؤيتها للعام الخارجي، بالإضافة إلى الأهمية القصوى لدور الزوجة الأم في الحياة الأسرية و تأثير تواجدها وتفاعلها الأسري على المراهقة التي تظل بحاجة دائمة إلى عطف وحنان الأبوين وأن العكس سيؤثر حتما على الاتصال الأسري، وقد ينعكس عليه سلبا مما يؤدي إلى البحث عن البديل العاطفي خصوصا وأن الافتراضي قد فتح المجال لتحقيق تفاعل من نوع آخر لا تحكمه أي قواعد أو معايير اجتماعية. ولعل طبيعة

المرحلة العمرية ومحدّداتها تجعلها أكثر اندفاعا نحو العلاقات العاطفية الافتراضية التي تصل حدّ التفاخر عند بعض المبحوثات لقدرتها على تحقيقها ..

ثانيا : شكّل العنف الأسري أكثر الدوافع النفسية لإقامة علاقة عاطفية هروبا من ممارسيه سواء الأب أو الأم أو الأخ أو أحد الأقارب.

لقد أكّدت إحدى الدراسات على تفاوت أنماط التنشئة الأسرية بحسب تفاوت خصائص الوالدين وطبيعة استخدامها للسلطة، فالمراهق الذي ينشأ في بيئة ترعى ميوله وتحقّق ذاته وتشبع حاجاته يختلف عن الذي ينشأ في جو متسلّط تكبح فيه الإرادة الذاتية ويستخدم فيه العنف والعقوبة في تشكيل سلوكه، فهناك فرق بين أن يكون مقبولاً في أسرته يعامل بديمقراطية، وبين أن يكون منبوذاً يعامل بتسلّط وديكتاتورية. وعلى الرغم من أهمية الأسرة، وخطورة تأثيرها في بناء المجتمع من خلال قيامها بعملية التنشئة الاجتماعية للأولاد إلا أنّها تفشل أحياناً في القيام بهذا الدور، فنرى أنها تقدم للمجتمع أعضاءا مضطربين نفسياً وسلوكياً، وذلك بسبب أنماط السلوك وأنواع التفاعلات التي تستخدمها أحيانا.. فالأسرة مسؤولة عن سلوك الأفراد الإيجابي والسلبي ودرجة المسؤولية هي موضع التساؤل وليس وجودها؛ حيث تؤثر الأسرة على الأفراد عندما تستخدم العنف وسيلة للتعامل.(14)

وقد يصبح الوضع في اعتقادنا أكثر خطورة حين يمارس العنف الأسري على المراهقة التي تحتاج إلى رعاية مضاعفة لخصوصية المرحلة العمرية التي تمر بها ووضعها الاجتماعي المرتبط أصلا بهويتها الأنثوية مما يعني أن ممارسة أي سلوك عنفي قد يكون له رد فعل سلبي من طرف المراهقة في محاولتها البحث عن فضاء أكثر أمنا وأكثر أريحية .

ولعلنا نشترك في هذا الطرح بالذات مع دراسة سابقة في تأكيد الباحث على تدعيم الاحتياج النفسي والروحي المشوب بالتحدي واثبات الذات كأحد أبرز دوافع إقامة العلاقة العاطفية.(15)

ثالثا : أن أكثر الوسائل المعتمدة في تأسيس العلاقة العاطفية الفايسبوك ووسائطه الافتراضية (الدردشة..)، والتي تبيّن من خلالها حرية التواصل وحرية التعبير وكسر كل الطابوهات مثلما أكدت إحدى المبحوثات (نحكيو في كلش)

أخذت مسألة الإقبال على العالم الافتراضي، وفي ظل الأريحية المطلقة في التواصل من خلال وسائله السهلة والمتاحة، أبعادا كثيرة وفي الوقت ذاته خطيرة جدا نظرا لتأثيراتها على شخصية المراهقة، على نظرتها للحياة، وعلى هُويتها المحددة والمقولبة اجتماعيا، و تمكّنت من خلاله (أي العالم الافتراضي) من كسر الكثير من الطابوهات والمحرمات .

رابعا : أن أكثر الأوقات التي يتم فيها التواصل الافتراضي هي الساعات المتأخرة من الليل و السبب الرئيسي هو عدم الإزعاج أو تلقي أي ملاحظة من طرف أحد أفراد الأسرة..

إن التفاعل الدائم بين أعضاء الأسرة الواحدة يعتبر من أساسيات نمو شخصية أفرادها خاصة المراهقين، فإذا كانت الأسرة مبنية على علاقات إيجابية تمكّن الأبناء من تأسيس مجال خصب لحياة غنية بالخبرات، وإلا سعوا إلى تحقيق ملذاتهم والتنفيس عن احتياجاتهم خارجها. وقد تناول دوركايم هذه الحقيقة الأساسية عندما أشار إلى أن كل زيادة في عدد الاتصالات تضاعف فرص الاحتكاك وتبادل العلاقات بين الأشخاص، وحيث يستدعي ما ينشا من مشكلات ضرورة التكيف وتتطلب الحياة تحقيق الانسجام مع القواعد والتعليمات..

وفي نفس السياق، وفي طرح سابق أكد أحد الباحثين أن المراهق الجزائري يعاني من عدة مشكلات، وأن المشكلات الشخصية والنفسية والأسرية أعمق تأثيرا في نفسية المراهق الجزائريّ، تليها المشكلات الصحّية والبدنية، إضافة إلى المشاكل المتعلقة بالتكيف مع العمل المدرسي ومشاكل النشاط الاجتماعي والترفيهي، كذلك المشاكل المتعلقة بالتخّوف من المستقبل المهني والمشاكل المالية أو الأحوال المعيشية بشكل خاص، ومن ناحية أخرى فإنّ مشكلات العلاقة مع الطّرف الآخر (الجنس الآخر) تشكل هي الأخرى جانبًا كبيرا من الأهمية بالنسبة للمراهق الجزائري لأنّها كثيرا ما تبدوا معقدة وسط ضغوطات متناقضة في المجتمع عمومًا وكثيرا ما يكتنفها الغموض والخوف والقلق..[16]

خامسا : أن أكثر اللقاءات العاطفية تكون خارج الفضاء المديني لإدراك المبحوثات خطورة الفعل والرفض الاجتماعي له

فليس ثمة شك في أن السلوك الاجتماعي سواء أكان أخلاقيا أم غير أخلاقي، مشروعا أم غير مشروع، يمكن أن يُفهم فقط في ضوء القيم التي تعطي السلوك معناه، أي أن المعاني لا تكمن في طبيعة الأشياء، و لكنها تضفي على تلك الأشياء ثقافة الجماعات المعيارية. لذا فإن السلوك المنحرف يتحدد وفق نظام كل مجتمع وثقافته ومنطلقاته العقيدية والثقافية. من هنا نجد ميشيل دينكش يعد الانحراف السلوك الذي لا يتماشى مع القيم والمعايير والعادات والتقاليد الاجتماعية التي يعتمدها المجتمع في تحديد سلوك أفراده. و هكذا نجد أن بعض الأنماط السلوكية تكتسب الصفة الشرعية وبعضها الآخر صفة الانحراف وحينما نقيّم سلوكا معينا فإنما نفعل ذلك في إطار معايير الجماعة السائدة التي تفرض طاقم معاييرها على المجتمع كله.[17]

ولعل هذا الطرح يفسر بعمق المحاولة الدائمة لإخفاء العلاقات العاطفية من طرف فاعليها وممارسيها باعتبارها انحرافا عن القيم والمعايير الاجتماعية .

سادسا : الإدمان على إقامة العلاقات مع احتمال دائم لتغيير الطرف الأخر، الانحرافات السلوكية لاسيما الجنسية..

إن الاضطرابات السلوكية التي تكثر لدى المراهقين والمصنفة حسب كتاب التصنيف الإحصائي الرابع للأمراض النفسية الصادر عن الجمعية الأمريكية للطب النفسي هي اضطرابات تؤدي إلى عنف وعدوان ضد الأسرة وترجع إلى عوامل وراثية أو بيئية وأسرية، وفي هذه الاضطرابات يشعر الفرد بدافعية وإلحاح كبير بالقيام بسلوك ضد معايير الأخلاق والقيم والأعراف الاجتماعية، و ضد النظم والقوانين. والمراهق لا يشعر بالراحة ولا ينخفض مستوى التوتر لديه إلى بعد القيام بهذا السلوك، علما أنه لا يوجد مبرر منطقي لهذا السلوك الذي قد يتكرر كثيرا.[18]

ولعل الإصرار على تكرار إقامة العلاقات العاطفية رغم الإدراك بخطورتها ورفضها اجتماعيا من طرف المبحوثات يعكس فعلا حالة من الاضطراب السلوكي الذي تعيشه المبحوثات بسبب الوضع الأسري وإفرازاته العلائقية التي تحولت إلى معاناة حقيقية .

فبرغم خطورة وفداحة الآثار الاجتماعية والتعليمية **حسب الباحث يحي زهران** إلا أنه للآثار النفسية أبعاد تؤثر على كافة جوانب الشخصية، وتنال من استقرار البيئة العائلية والمجتمعية. ووسط تلك العلاقات يظهر نسب أقل لآثار وسلوكيات أخلاقية كممارسة أشياء محرمة.. وهي وإن كانت أقل عن باقي الآثار التعليمية والنفسية إلا أنه ينبغي متابعتها ووضعها موضع الاعتبار لآثارها المدمرة على مستقبل هؤلاء.. (19)

خاتمة:

لعل محاولة طرح ظاهرة العلاقات العاطفية في وسط المراهقين باعتبارها نتيجة منطقية لغياب أو تغييب بعض الوظائف الأسرية وأكثرها أهمية وهي الاتصال الأسري ذات أهمية كبرى لطبيعة الظاهرة وخطورة إفرازاتها الآنية والمستقبلية لاسيما في بعدها الأخلاقي والانحرافات السلوكية التي قد تنتج ظواهر اجتماعية أخطر في المجتمع الجزائري الحضري بالخصوص في ظل التغيرات المجتمعية وتأثيرات العالم الافتراضي اللامتناهية والتي ساهمت بشكل كبير في زعزعة الاستقرار الأسري وتأسيس نوع جديد من التفاعلات الأسرية التي تتطلب حذرا كبيرا في التعامل معها.

الهوامش:

1. فرحات أحمد: أساليب المعاملة الوالدية (التقبل-الرفض)كما يدركها الأبناء و علاقتها بالسلوك التوكيدي لدى تلاميذ التعليم الثانوي، قسم علم النفس و علوم التربية و الأرطفونيا ، جامعة تيزي وزو ، 2011-2012 ، ص16
2. هالة فاروق أحمد الخريبي: أساليب المعاملة الوالدية كما يدركها الأبناء من الجنسية ، و علاقتها بالإتزان الإنفعالي في المرحلة العمرية 14-17 سنة ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتراه في دراسات الطفولة جامعة عين شمس ، القاهرة،2002 ، ص 3
3. بلمولود جمانة : علاقة الأسرة بانحراف المراهق ، مذكرة ماجستير في علم إجتماع التنمية ، قسم علم الإجتماع و الديمغرافيا ، جامعة قسنطينة ، 2004 -2005 ، ص276
4. يحي علي زهران: العلاقات العاطفية الطلابية ، من المسامرة إلى المخاطرة ، جامعة المنصورة، 2012، على :

www1.mans.edu.eg/facagr/arabic/StudErUnit

5. طارق السيد : الإنحراف الإجتماعي، الأسباب والمعالجة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر ، 2012، ص 13
6. مصطفى حجازي : الأسرة و صحتها النفسية المقومات-الديناميات-العمليات، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1، 2015
7. مروة الهادي:الأمن النفسي و علاقته بالصلابة النفسية لدى المراهقين ذوي الإعاقة السمعية ، دراسة سيكومترية كلنيكية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التربية ، قيم الصحة النفسية ، جامعة الزقازيق 2009،ص15-16
8. سهام صوكو: واقع القيم لدى المراهقين في المؤسسة التربوية ، مذكرة ماجستير غير منشورة تخصص علم إجتماع تنمية و تسيير الموارد البشرية ، قسم علم الإجتماع ، جامعة قسنطينة ، 2008-2009 ، ص81
9. زموري زينب ، بغدادي خيرة : العلاقة العاطفية بين الجنسين باستخدام الوسائل الإكترونية بين المجتمع الإفتراضي و المجتمع الحقيقي، على :

dspace.univ-ouargla.dz/jspui/bitstream/123456789/5905/1/SSP0210.pdf

10. طارق السيد ، نفس المرجع ، ص 51
11. سامية خضر صالح: دراسات سوسيولوجية معاصرة ، على www.kotobarabia.com
12. حنان بنت شعشوع الشهري: أثر استخدام شبكات التواصل الإلكترونية على العلاقات الإجتماعية "الفيس بوك و تويتر نموذجا" ، على:

blog.kau.edu.sa/norahomodi/files/2012/03/The-Effects-of-Using-Electronic-Social-Networks-on-Social-Relationships.pdf

13.زموري زينب ، بغدادي خيرة ، نفس المرجع

14.يامن سهيل مصطفى : العنف الأسري و علاقته بالتوافق النفسي لدى المراهقين ، رسالة ماجستير في الصحة النفسية للأطفال و المراهقين ،كلية التربية جامعة دمشق ، 2009-2010 ، ص 48

15.يحي علي زهران: العلاقات العاطفية الطلابية ، من المسامرة إلى المخاطرة ، مرجع سبق ذكره

16.عبد الله بوجلال، آثار التلفزيون على المشاهدين، مجلة بحوث، معهد علوم الإعلام والإتصال ، جامعة الجزائر، العدد 2 ، 1994، ص87

17.عدنان ياسين مصطفى:سوسيولوجيا الإنحراف في المجتمع المأزوم،إثراء للنشر و التوزيع، الأردن،ط1 ،2011 ، ص15-16

18.إسماعيل محمد الزيود: العنف المجتمعي ، إطلالة نظرية ،دار كنوز المعرفة العلمية للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2012، ص 70

19.يحي علي زهران: العلاقات العاطفية الطلابية ، من المسامرة إلى المخاطرة ، مرجع سبق ذكره